الشبيه

قصة قصيرة

فهد الأسدي

كنتُ ما أزال أقف وسط ذلك المرج الواسع المحيط ببناية المعهد، بعد أن خلفتني فتاتي «حياة» وابتعد عني خصمي، ذلك الأعمى «الزيبق» في هدنة قصيرة أراجع خلالها نفسي لأتخذ قراراً ينتظره.. كنتُ أملي نفسي بنظرة كنت أقول: ربما ستكون هذه هي النظرة الأخيرة لمعهد عشت فيه حياة كانت كبئر ضيقة الفوهة، عميقة القرار.. أحببتُ فيه بصميمية، وعشقت ناسَهُ؛ لأني عشقتُ من خلالهم حلماً كبيراً، ضمن زحمة من تجربة امتزجت فيها الهواية بالحرفة ولم أعد بقادر على الفصل بينهما..! ولكن ها هي النهاية القسرية تواجهني. لم يبق أمامي، تحت تحدي ذلك الأعمى الزيبق، سوى خيارين: إما أن يتعين عليّ أن أسمل عيني، وأكون جزءاً من ذلك العالم قريباً من فتاة أحلامي، وإما أن أخرج من المعهد محمولاً على الأكتاف، مطروداً أو غير ذلك، حين أغضب الزيبق فينفذ وعيده بفضح سري، وتقوم قيامة إدارة المعهد والعميان ضدي.. سويعات قليلة. أكان أحد منكم قد جربها، وعرف كيف أن تاريخاً كاملاً يمكن أن تمسحه أو تؤكده لحظة؟! مع هذه الحيرة وجدتُ نفسي أجاهد وسط أمواج بنفَس المحارب الذي لا يقوى على النصر، ولا يطيق الانكسار!

كنتُ قد دخلتُ معهد تأهيل العميان هذا قادماً في مهمة سرية اعتمدتني فيها مؤسستي، وذلك لكتابة تقرير عن عالم المكفوفين، ووضع دراسة عن مشكلاتهم محاولة منها لعلاجها.

ولأن المهمة تتضمن أيضاً نوعاً من التحقيق في صحة الاتهامات، والتي كثيراً ما ترد إلى الوزارة والموجهة لإدارة المعهد وممارساتها، فقد رُتبت المسألة بحيث يتمّ التحاقي بالمعهد لا كرائز أو مفتش أو صحفي- إذ أن ذلك يعني- وكما نبهني مديري المسؤول- بمثابة دق الجرس إنذاراً للفأر بدلاً من ضبطه.

همس الرجل في أذني يوماً ونحن نمهد للعملية قائلاً: يجب أن يبقى كلّ هذا تحت طي السرية؛ فقد عملتُ مع الكثير، ولدى القناعة التامة بأن إدارة المعهد لو علمتْ بمهمتك فليس عسيراً عليها أن تنقل اشجاراً باسقة أو نخيلاً هرماً وبلا عروق من مكان ما وتغرسها في المرج المحيط لتوحي إليك بأن تاريخ الاصلاح في هذا المعهد أصيل ومتوارث..

لذا، وأمام مهمة بهذا الشكل، فقد دربتني المؤسسة على أن ألج هذا العالم المليء بالسرية والغموض كمكفوف محتاج للتأهيل لمهنة ما أو عمل. ولتمثيل هذا الدور كان عليَّ أن أتدرب لأيام طويلة، وأزور مقاهي ومنتديات عدة جل روادها من العمي لكي اضبط حركاتهم، واحدد سلوكياتهم، ولكي أبدو- حين التحق، واعتماداً على تمثيلي- أعمى لا يثير الشكوك. لا من قبل إدارة المعهد فحسب، بل من قبل العميان أنفسهم. إذ أن ذلك العالم كان كالجسم يرفض في أكثر الأحيان أيّ جسم غريب عنه..!

لقد قرأت الكثير عن ذلك العالم، وتوقعت الكثير من تسلكات حشد من ناس كيّفوا أنفسهم للعيش في الجانب المظلم من الحياة. ولكن أن تقرأ عن أمر شيء، وأن تعايشه شيء آخر.

أذكر جيداً في موقفي هذا كلمات مدير مؤسستنا: مروان، احرص على مهمتك! تذكّر أنها جزء من برنامج عمل بعيد المدى، وانكشافها يعني فشل مشروع بكامله.. خسارة جبهة في مثل هذه المعارك تعني خسارة الحرب بكاملها!

في الأيام الأولى لالتحاقي بالمعهد، وجدتُ عالماً مهجوراً، وكأنه سديم مقذوف في مجرة غير متناهية من فراغ.. عالم بطقوس مألوفة له، ولكنها غريبة أيضاً لكونها مألوفة له وبمثل هذا الشكل!.. خليط من مبصرين يخططون لسرقة عميان، وعميان يخططون لإثارة المتاعب لأولئك المبصرين!

كان ذلك المعهد حالة خاصة؛ فإدارته- على خلاف مثيلاتها- قد تركت للمكفوفين أمر تأهيل أنفسهم بأنفسهم من خلال ممارساتهم الخاصة وبغير تدخل ما، قائلة: «الناس أحرار

فيما يختارون من مهن. والحياة صراع عنيف، وعلى كلّ أعمى فهمُ ذلك؛ ولذا فعليه ووفقاً لهذا المعترك أن يكيّف نفسه ». ناعتة العميان الذين يعتمدون على غيرهم في التأهيل لعمل ما بالشخصيات الفهلوية والتي لا يحق لها أن تتسلق غيرها؛ لأنها خسرت معركة البقاء.. ولذا فقد وجدتُ قاعة الأعمال حين زرتها تعجّ بفوضى من أشكال انتاجية، ومواد مصنّعة، ونصف مصنعة، ونفايات وقاذورات ومواد أولية، دلتني على أنّ أغلب أناس هذا المعهد قد استكانوا إلى دعة الحياة، واهملوا التأهيل المهني كثيراً مما سيكون مادة الاتهام الأولى في تقريري القادم..

وبينما توصي مناهج وتعليمات مؤسسة المكفوفين على اشاعة جو الثقة بالنفس، وابراز الجوانب المضيئة في الحياة للعمي، والتأكيد على العلائق بينهم وبين العالم؛ عمدت إدارة ذلك المعهد إلى تطبيق منهج خاص ينسجم مع رأيها في أن كل تلك المناهج « اللامجدية » التي توصي بها مؤسستنا تؤدي إلى تقوية نوازع التمرد في نفس المكفوف على واقعه الخاص. وهذا - في رأيها - مما يزرع التعاسات في نفسه حيث الاغراء الكاذب المعتمد على الخيال لا الواقع. ذلك الخيال الذي يصرح بأن حياة العمي يمكن أن تستوي مع حياة المبصرين يوماً.

لقد رفعت إدارة المعهد شعارها « حيث الطموح فهناك التعاسة ». وجعلت منه شبيهاً بقانون غير مدون.. قانون معنوي متوارث، مستن من قاعدة فقهية خلقتها أعراف العميان. ولقد نجحت - إلى حد ما - في الايحاء بأنّ هذا القانون هو من وضع المحكومين لا الحكام ومن هنا تستقى شرعيته وخلوده....!

لقد نحت الإدارة منحى رواقياً يهدف إلى تقريب عالم العميان من عالم الزهاد الهاربين من متع الحياة القصيرة الزائلة إلى حياة الأمل الأخروية حيث لا يصطدم الخيال بالنهايات المدببة الحادة للعالم المادي.. لقد جهدت كثيراً لأن تبعدهم عن عالم البهجة والغناء، ولكنها حين وجدت أن ذلك يقترب من الأمر المستحيل، قنعت بأن تترك للعميان حرية الغناء مع الناي. ولقد كانت هذه الآلة الموسيقية الوحيدة المدللة في المعهد. في حين أن الطبول والصناجات لا تدقّ إلا في مناسبات محدودة نظراً لقابليتها أحياناً على إثارة الخدر اللذيذ في رؤوس العمي..

إلاّ أنّ تلك الأوامر والنواهي كثيراً ما تخرق خروقاً واسعة؛ وعند ذاك تعالج بصرامة وقسوة من قبل المشرفين، فيعود سطح البحر إلى الهدوء والصمت.

في اليوم الأول وبعد أن كملت اجراءات الحاقي بالمعهد، أمسكتني كف المستخدم الصارمة من رسغي، وقادتني عبر دهليز طويل يفضي إلى باب.. هتف المستخدم:

- من الآن وصاعداً، تعلّم السير بمفردك؛ فلسنا متفرغين لك. قاعتك في نهاية هذا الرواق. أياك أن تصدم بابه الزجاجيّ امامك!

وفرحت ساعتها. لقد جاز تمثيلي على هذا الرقيب المبصر، وأنا البس نظارتي القاتمة مخفياً عينيّ عن التدقيق. كنتُ في بحران هذا الوهم الجميل، حين فوجئتُ بضربة ضلفة الباب على صدغي بقوة أحدثت معها صوتاً عالياً. اعقب ذلك صيحة عالية:

- العمى!

كان ذلك أول لقاء لي بزميلي الأعمى « الزيبق، بعد تلك الشتيمة، قدم نفسه باسماً:

- « محسوبك ».. الزيبق!

اجبت بارتباك:- عفواً.

هتف الزيبق:

- لا بأس! أراك مستخدماً جديداً. لقد جرب المستخدمون الآخرون قبلك هذه الصفعة. شف. هذا هو الدرس الأول. لم يسبق لأعمى الاصطدام بهذا الباب. أما أنتم - المبصرين - فلا أدري لمَ تصرون على غروركم بهذا الشكل؛ وأنتم تصدمون باباً يَسَعَ الجمل؟ اوه. معذرة لهذري. رح، شفْ شغلك!

اعترضت قائلاً:

- ولكني لستُ مستخدماً، أيها الأخ! أنا متأهل جديد وأعمى مثلك، أحاول الاهتداء إلى قاعة الرجال.

سبرتني مجسات الأعمى بتشكك طويل، ثم قال:

- أعمى؟! ولكن أيّ نوع من العمى هذا لم أصادف مثله من قبل؟ إني أكاد لا أصدقك!

قادني من رسغي عبر البوابة. وقدمني لجماعته هاتفاً:

- أقدم لكم زميلاً جديداً.

وحينها توقف ليستفهم عن اسمي؛ فأكملت قائلاً:

- مروان..

أول الأمر استقبلني النزلاء بترحاب. وبمرور الوقت - ولا أدري لم - بدأوا يرتابون بي، ويتجنب الكثير منهم الاقتراب مني. ربما لأنني كثيراً ما كنت أصطدم بالأشياء محدثاً جلبة وضوضاء.. وصراحة، فقد كنتُ أتعمد فعل ذلك خاصة أمام الرقباء وموظفي الإدارة، متصوراً أن ذلك إجراء ضروري لتضليل الرقباء. كما واني كنتُ أحدث صريراً حاداً بأسناني خلال الأكل أو اشفط الشاي بصوت مسموع. ولا شك أن ذلك كان مبرراً لإثارة أناس مرهفي الحساسية استكانوا لخدر العمى اللذيذ.. لقد خسرتُ في الأغلب في لعبة الدومينو مع منافسي من العميان. وبدوت جاهلاً لكثير من الهموم والأسرار في مجتمعهم. لقد بدوت في نظرهم أعمى من نوع غريب مما أثار شهيتهم للزراية بي والسخرية مني ومن تصرفاتي. وفي معظم الأحيان كان يقود تلك الحملات ضدي صاحبنا « الزيبق »..

وكان لا يحزّ في نفسي كثيراً أن أكون هدفاً لسخريتهم؛ فلقد كنتُ أوطن نفسي على أنهم سيكتشفون يوماً ما حقيقتي، وسيحسون بالدين الكبير لي لأنني ما عشتُ إلا لأغير عالمهم هذا حين تجد تقاريري طريقها إلى آذان الإصلاح في مؤسستي. إلا أن ما كان يشغلني هو شعوري بجهلهم لصداقتي، وحبي لهم.

في اليوم التالي من اقامتي بالمعهد، حاولت التعرف على أقسامه كجزء من مهمتي. لبست نظارتي القاتمة، وأمسكت

عصاي، ورحت أنفر بها نقراً خفيفاً - وأنا أسير - على بلاط الدهاليز متعرفاً على قسم الإدارة فقاعة الطعام ثم المطبخ. ثم قادتني قدماي في الاتجاه المعاكس: دفعت بوابة زجاجية افضت بي إلى ردهة واسعة بيضاء تضمّ أسرة متقابلة. فجأة خرجت امرأة متينة العضلات. صرخت بي: «إلى أين؟ هذا قسم المتأهلات.. مَن أنت؟ ولماذا دخلت هنا؟ أما تعرف أنّ المكان ممنوع عليكم؟» قبل أن يتسنى لي شرح موقفي، تعالت ضجة النساء حولي. ثم دُفعتُ إلى الخارج مع صيحات الاحتجاج. في الخارج واجهتني ضحكة الزيبق العالية، وهو يمسك برسغي:

- لا تهتم يا مروان! كلنا وقعنا بنفس الخطأ قبلك. ما أن نستلم البطاقة حتى تأخذنا أرجلنا إلى هذا المكان. ما الحيلة يا أخي، إذ يبدو أن عقولنا بين أفخاذنا؟! تعال معي لأدلك من جديد على قسمنا!

سحبت يدي منه بعنف صائحاً، وأنا أحاول ردّ اعتباري:

- لا حاجة.. ماذا؟ أيرشدني أمثالك إلى الطريق؟!

قال بتسليم أو وعيد: لا بأس، سنرى..

ولذا وبعد هذه الحادثة، بدأت أحدس أنّ هذا الزيبق هو مصدر متاعبي، إلا أنني - واعتماداً على ميزتي كمبصر - كنت أرباً أن أجعل من هذا الكفيف المسلوب نداً لي، كفؤاً لعدائي. خاصة وأن مهمتي كانت أبعد من هذا الهدف كثيراً.. إلا أنني اعترفت بأنني مؤخراً اكتشفت بأنني حيال شخص متمرس عنيد، يملك ثقة عالية بالنفس، افتقر إليها كثيراً. لم أذهب يوماً إلى مكان إلا وأجد ذلك الزيبق أمامي. كان له منخرا كلب، فهو يتحسس أيّ خبر جديد أو فضيحة أو همس يدور في أروقة المعهد.. يعرف كلّ عطفات المبنى، ويستطيع أن يجوز المتنزه القريب من غير أن يصدم حجراً أو شجرة. كان يتكلم بكلّ ثقة أعمى. كان عليّ أن أعمل جاهداً لئلا أكون هدفاً لسخريته المريرة؛ إذ فضلاً عن فراسته الجيدة كان له لسان سليط لا يرحم. كان يملك سيطرة صارمة على نزلاء المعهد. الأغلب أنه كان يحترم كلمته. ربما لأنهم يخافون أو يحذرون. أما أنهم يحبونه فهذا ما أشك به كثيراً.

وصراحة، وحرصاً مني على نجاح مهمتي، فقد كنت أخشى فضول الزيبق أكثر من خشيتي من اكتشافي من قبل رقباء إدارة المعهد، إذ كان لهؤلاء همومهم وهواياتهم الخاصة والتي تشغلهم عن أعمى مثلي أشتهر عنه عميان: عمى العين، وعمى القلب!

وكان للرجل قابلياته الخاصة. ففي حفلات العميان، وفي مواسمهم لا بل حتى في مآتمهم، كان هو سيد المسرح. وكانت له دقة فائقة بتقليد الأصوات لا يميزها إلا عالم أصوات متشكك. وكثيراً ما كان يثير ضحك العميان واستحسانهم؛ حين يقلد صوت مدير المعهد في نزوات غضبه على مستخدميه. وحين يعرض هذا المشهد فإنك أمام حوارية متنوعة لأشخاص عديدين، يؤديها ممثل واحد هو صوت الزيبق. وكان يستطيع أن يبكي العميان في مآتمهم، عندما يتخذ لنفسه منبراً مقلداً (ملالي) العزاءات، والنداهات وقراء المواليد..!

إنّك معه وكأنك مع الماء؛ ليس له طعم خاص، أو لون خاص، أو رائحة خاصه؛ كما أنك لا تستطيع أن تقبض منه شيئاً..!

لقد أذهلني حين طلبوا منه يوماً أن يقلدني فجاء صوته وصوتي متشابهين شبهاً غريباً. لقد أجاد تقليد لهجتي، وطريقتي في الضغط على مخارج الألفاظ، وحتى لثغة الراء عندي. حتى أنني حين تدخلت لأصحح له في بعض المواطن، ظن العمي أن الزيبق نفسه هو المصحح لا أنا؛ فراحوا يصفقون استحساناً له..! إلا أنني وبرغم تلك البراعات كنت أوطن نفسي بأنني أبزّ هذا الرجل في الكثير؛ ذلك لأنني - وعلى مرّ الوقت - وجدت أن استجاباته لتقليد شخصيتي أكثر من استجاباتي لتقليد شخصيته. كما - ولا أخفي ذلك - أن بدأ يشكك بي أكثر، ويحذرني أكثر. وبالتالي يظهر احتراماً لي في أكثر من مناسبة. ولقد جرى هذا التحول بالذات بعد حادثة معينة ضبطت بها غريمي:

في عالم العمي هذا تشهد مناظر وطرائف كثيرة؛ فالمعهد قسمان: الجانب الأيسر منه يضمّ جناح العمياوات، والأيمن منه يضم جناح العميان. يفصل بينهما في القلب قسم الإدارة كنقطة جمارك بين دولتين. على قسم العمياوات تقف حارسات صارمات، وواحدة منهن من ضبطتني في بداية أيامي، وأنا أتسلل قريباً من دائرة عملهن. وهناك، طبقاً لفلسفة الإدارة الرواقية، رقابة صارمة ضد أي نوع من الاختلاط بين الجنسين؛ فالشرق شرق والغرب غرب.. إلا أنه وبرغم تلك الرقابة الصارمة فقد شهد المكان الكثير من عمليات التهريب بعيداً عن عيون دائرة الجمارك أو حتى قريباً منها؛ فالرقباء لا يستطيعون حبس الغناء في اللّيل. وحين تسيل ألحان الناي، تتدافع الفتيات العمياوات ملتصقات الأجساد هاتفات: اسمعن، ها هو حسوني الأعمى يغني! الفريقان يعرفان بعضهما البعض وبكلّ التفاصيل: الأسماء، الأصوات، تواريخ الدخول، المهارات. كلّ ذلك محفور في الذاكرة، ومَن يمتلك مثل ذاكرة الأعمى؟ ساعة اللقاء الوحيدة المسموح بها وفق قوانين الإدارة هي ساعة الطعام؛ ذلك أنه ليست هناك سوى قاعة طعام واحدة. وهذا ما يضطر الإدارة على هذا الخرق. لقد صفّ وسطها منضدة طعام طويلة، تحتل العمياوات جانبها الأيسر بينما يتخذ العميان مكانهم على الجانب الآخر. تدخل العمياوات - تحت حراسة صارمة - عمياء إثر عمياء. وكذا الحال مع الرجال. وحين يتخذ العُمي أماكنهم بهدوء، أكون أنا الوحيد الذي يثير الجلبة حين أصدم قدمي بمقعدي - عامداً طبعاً - وحينذاك يرتفع صياح الجانبين: العمى.. يعميك! ينطلق بعدها ضحك قصير، يقطعه صوت المشرف آمراً: - هيّا للأكل!.

في هذه المقابلات لا يحتمل سوى الهمس المبحوح. وربما تمتد من تحت المائدة أصابع لتلتقي بأخرى. وفي هذه الجلسة عادة تحدد

ساعات اللقاء وأماكنه بلمسة خاطفة لا يفطن لها الرقباء.. وحينذاك ستكون لحظات اللقاء العذاب يسرقها العمي في فترات القيلولة حين يخلد الجميع للصمت، فالرقباء المبصرون عادة يسرقون في غفلة من العمي ساعات لقائهم بفتياتهم من الرقيبات أو العمياوات وراء الأبواب الموصدة. والعمي عادة يستغلون غباء المبصرين أو اهمالهم هذا، فيتسللون للقاء الحبيبات في الزوايا، وهنا تتحول اللغة إلى طقوس من الهمس. إلا أن العميان - وكما حدثوني كثيراً - لا يعدمون وسائل أخرى؛ فقد يعمدون إلى رشوة الحرس بالمال أو بالعينيات ليغضوا الطرف؛ وكأن «لا مَن شاف ولا مَن درى» وكنتُ أتابع أحياناً تلك اللقاءات بلذة المكتشف لعالم غريب طريف. وعرفت كيف يمارس العمي طقوس الحبّ. وكيف يتعرف الأعمى على رفيقته من خطوها، ومن لهاثها، ويفرزها من بين الأخريات المنتظرات. ومن بين تلك العلاقات الحبيبة كثيراً ما تندس ممارسات خبيثة، تثير الخناقات بين العميان. وكنتُ أكاد أنفجر وأنا أحاول حبس ضحكي حين يشتبك أعميان - مثلاً - في عراكٍ صامت، وهما يتبادلان المسك والخنق والعض ولا أقول - الشتم - فهنا لا مجال سوى للهمس؛ إذ أن قوانين المعهد صارمة في عقاب الإثنين دون تفريق بين معتدٍ ومعتدى عليه.. في حين تقف فتاة عمياء تشهد هذا المشهد - البانتوميم - مرتجفة ذعراً أو غروراً..

في تلك المغامرات يشكّ الكثير في أن يكون الزيبق «زير نساء»؛ ذلك لأنه إستطاع أن يغطي شهوانيته المتقدة بمظهر زائف من التقوى. وللرجل أساليبه البارعة في الحفاظ على قسم كبير من عالم العمي جاهلاً لحياته الأخرى. وكنت أرجح في البداية ما ترجحه العامة؛ وأنا أراه في كثير من الأوقات منشغلاً في كتابة الرقي والتعاويذ لطالبيها. وكثيراً ما كانت تصله تلك الطلبات من مجتمع العمياوات نفسه، حين يلمّ بأي واحدة منهن وجع أو مصيبة ما. ومن يدريني أن تلك المهمات كانت سلماً يتخذه الزيبق وصولاً إلى أهدافه الشهوانية؛ خاصة وأن المخدوع يحرص أبداً على ألا يكشف عورة تورطه في علاقة ما مع هذا الزيبق.

أثناء ساعات الطعام، كنتُ أروز العمياوات من خلال نظارتي السميكة. وكانت فتاة فقط من بينهن قد استحوذت على اهتمامي بفضل هدوء جمالها، وقوة شخصيتها البسيطة، والتي كانت تشفّ عن حزن عميق مستقر. وباطلاعي عما يشهر عنها، فقد عرفت أنها لا تشارك في سقطات وحماقات مجتمع العمياوات، مما زاد في احترامي لها.

كان صاحبنا «الزيبق» يحرص بعد اعداد رقية أو تعويذة ما أن يسلمها لزبونه وقت القيلولة تجنباً - على ما يظهر - من عيون الدخلاء. وكان يردد دوماً: أن تفعل الخير، فالخير أن تفعله بالسر.. وأمام روح نبيلة بهذا الشكل لا تملك سوى الانحناء باحترام..! في إحدى القيلولات انشغلت عن النوم ولا أذكر: أكان ذلك بفعل طعام رديء تناولته أم لأني كنتُ أراجع مذكراتي.. صدفة احسستُ بنأمة خفيفة في القاعة.

كان الزيبق يرفع رأسه عن وسادته بحذر شديد. وبعد أن أرهف أذنيه كحصان، أنزل رجليه عن السرير ببراعة. لا يمكن أن يلتقط حركته تلك أي جهاز حساس لولا أن لدي عيني المبصرتين. لبث الزيبق برهة يتسمّع، ولما أيقن من اخلاد الجميع للنوم، دبّ بهدوء وانسل خارج القاعة. كانت حركاته قد أثارت فضولي فتسللت وراءه بحذر تاركاً بيني وبينه مسافة مناسبة لكي لا تكشفني مجساته.

انعطف الرجل نحو زاوية تركت كمنبر للمهملات. لبث مسمراً هناك لفترة. عندها فجأني ظهور الفتاة العمياء «حياة» من عنبر العمياوات والتي كانت كما قلت تستحوذ على اهتمامي. اتجهت حياة نحو عنبر المتروكات حيث لبث الزيبق منتظراً. وهنا غزاني غضب محتدم، وانفعال رهيب.. مزيج من المفاجأة وخيبة الأمل. فكرت: أتكون هذه البنت واحدة من محظيات الزيبق أيضاً، وكلّ وقارها واتزانها طلاء؟!

تقدمتُ بحذر. سمعت الزيبق يحادث الفتاة قائلاً:

- ها. وأخيراً جئتِ يا حياة!

هتفت الفتاة: - نعم يا عمي، ها أنا جئتُ كما وعدتني. وها هي بعض الدراهم ثمناً «للحرز»

هتف الزيبق: - ولكن لماذا الدراهم يا حياة. لقد فعلتُ كلّ هذا اكراماً لحبي لك!

همست الفتاة: - ولكنك تعلم يا عمي، أني لا أبادلك الحبّ. لقد جريتَ خلفي طويلاً؛ لكني لستُ كالآخريات. أعطني «حرزي» ودعني أعد بلا فضائح. أرجوك..!

صاح بها الزيبق محتداً وبهمس:

- افهمي أيتها البنت، فإنك ما زلت صغيرة. إنني وفي هذا المعهد لن تقدر واحدة أن تعصي أمراً لي. أنت تعرفين سلطاني على الجميع. أبسط الأمور أني استطيع أن أصرخ الآن فألمّ الناسَ حولك.

هتفت حياة متوسلة: - لا تفعل ذلك - أرجوك يا عمي!

قال الزيبق بهدوء: - لن أفعله حتماً لو عقلتِ، واقتربت مني بلا ضجيج..

قالت الفتاة: - ولكنك تطلب المستحيل..

وهنا مسك الزيبق برسغ الفتاة بقوة، وجرّها إليه في حين راحت هي ترتجف بين يديه وهي تتضرع إليه هاتفة: - فك يدك عني، وإلا فسأصرخ!

هتف الزيبق بتهكم: - اصرخي! هذا ما أريده. إذ عندما يجتمع الناس حولك، سيصدقونني لأنك سعيت إلي برجلك. من جاء بك إلى قسم الرجال؟

راحت الفتاة تدفع صدره ووجهه بيدها في حين كانت يد الزيبق تعبث.. عند ذاك جاء دوري. هجمت على الزيبق من الخلف فقيدت يديه. صحت بحياة:

- اسرعي إلى عنبرك قبل أن يستيقظ الآخرون، ودعي لي هذا النذل.

هتف الزيبق باحتجاج: ولكن مَن هذا المتطفل؟ أتكون مروان؟

هتفتُ صارخاً: نعم.. مروان، وسألقنك درساً!

كنا نشتبك بعراك صامت، في حين تسمرت الفتاة قريباً منا.. هتفتُ بها:

- اسرعي يا حياة. عودي إلى مكانك قبل الفضيحة.

وعندها تنبهت الفتاة لوضعها فخرجت مسرعة، وهي تتمتم بالشكر لي.

من ذلك اليوم أعلنت الحرب بيننا. حرب صامتة من طرفينا؛ فأنا لم أكن لأميل للحقد على هذا الزيبق، بل كنتُ متشبثاً بفكرة اصلاحه وتقويمه، وكشف ألاعيبه للمخدوعين في أقصى الضرورة. وكان هذا الموقف لا يخرج عن رسالتي ومهمتي في المعهد.. وهو من جانبه قد أدرك بأنّ لدي قدرات خاصة. هذه القدرات قد وضعته أمام لغز لم يستطع تفسيره؛ لذا بات يحذرني كثيراً، لا بل يحترمني. حتى أنه، في أحيان كثيرة، حاول التقرب مني أو توسيط البعض لرأب الصدع بيننا. وطبعاً كانت هذه المحاولات لا تقابل بالصدّ مني. وبالنهاية فقد ظفر ببعض من شفقتي وعفوي.

إلاّ أنّ اهتمامي بالفتاة حياة كان قد غار بعيداً في الأغوار، خاصة وقد كنتُ اتحرق لمعرفة ما تركته محاولة الاغتصاب في نفسها من أثر..

أوقات الأمسيات الصيفية، كان مسموحاً للعمي التجوال منفردين جنساً عن جنس في المتنزه القريب كرياضة روحية بالدرجة الأولى، وكما توصي بذلك شرائع المعهد. هذه الرياضة قد تذكي فيهم الميل نحو الصوفية، والاغراق بالذات. ولم يكن مسموحاً أن يستمر لقاء أي الجنسين مع الآخر لفترة طويلة. إلا أنّه، وكما أنّ لأيّ قانون في الكون شهباً تنفلت من منظوماته، فقد كانت بعض هذه اللقاءات تطول. وقد تُتبادَل خلالها أحاديث عن الحياة والحب، إلا أن تلك المحادثات قد تقطع بجمل اعتراضية صارمة تصدر عن المشرفين، أو عن عميان تابوا على يد الشرائع؛ فزهدوا تلك الميول «الجامحة». وعند ذاك تكون تلك المحادثات كشهبٍ التمعت أضواؤها في سماء الأعمى للحظات ثم امتصتها السماء؛ وعندها يوقن الأعمى أنّ البقاء للقاعدة لا للاستثناء.

ومن هنا جاء شكّي بأن الإدارة هي نفسها من يعمد إلى تدبير تلك اللعبة المسلية لكي يتطهر العُمي خلال طقوسها من نوازعهم؛ وإلا فلِمَ هذه المصروفات الفائضة عن اللزوم لمراقبة العمي، طالما أنّها وبأمر بسيط تستطيع أن تستأصل شأفة هذه الخروق من الأساس، وذلك بأن تمنع النزهات؟

وكنتُ يوماً اتجول في المتنزه حين بصرت بفتاة اهتمامي «حياة» تدرج متلمسة الطريق. كان ظهورها مفاجأة فرح لي، إذ أن حياة كانت من النوع الانطوائي الذي لا يسمح لنفسه حتى بمتع بسيطة كهذه. لبثت انتظرها على الجانب، وحين قاربتني هتفتُ بها هامساً:

- مرحباً يا حياة!

وجفلت الفتاة وهي تردد: «مَن؟».

هتفتُ بها: - لا تخافي! فأنا مروان!

هنا أشرق وجهها بفرح، وهتفت:

- أحقاً..؟ مرحباً بك!. ولكن كيف عرفتني، ورصدتني بهذا الشكل؟!

قلت: - هذا سر سأصرح لك به يوماً. المهم أني آملُ ألا تواجهي مضايقات بعد تلك..

هتفت: - أوه! شكراً لك فقد ذكّرتني. لقد بحثت طويلاً عنك لأشكرك..

ألقت بكلّ هذا وبسرعة. وكأنها لدغت؛ ابتعدت عني وهي تحجل مسرعة داخل المرج. صحت وراءها: - ولكني سأنتظرك غداً، وفي هذا المكان نفسه.

لم أدرك سرّ عجلتها إلا بعد دقائق؛ حين ظهر الزيبق وهو يرهف أذنيه كحصان! من ذلك اليوم، زادت لقاءاتي بحياة. لقد أصبحت موضع اهتمامي وحبي، لذا فقد وطنتُ نفسي على أن أجعل لحياتها معنى. وصفت لها لون السماء والنجوم، وشكل الأشجار والزهور. وبعبارات المحب تغزلت بلون شعرها. وببعض أناشيد كنت أحفظها من طفولتي، وبقصائد من شعري الساذج غازلت وجهها البرونزي الجميل، وقوامها اللدن. وكنت مع كلّ لقاء أعيد ما أقول، وأضيف الجديد لقاموس معرفتها لأوكد أن ما أقوله لها هو الواقعي والحقيقي.. إلا أنها كانت تردّ عليّ قائلة.

- أوه، مروان!. يا لك من أعمى واسع الخيال! إني لأعجب: كيف يُقدر لك أن تعرف ألوان كلّ الأشياء، وأنت لا تبصر؟!.

وكنتُ أردد: - ولكني لي سرّي الخاص. المسي أيّ شيء بيدك؛ وسأعرفه.

وكنتُ انجح في اختباراتها؛ وكان ذلك مصدر عجبها، وحبي لها أيضاً.. عجبها من قدرة حبها على أن يجعل من أعمى مثلي عرافاً. وحبي لها وأنا أحسّ نجاحي في زحزحتها من نواميس المعهد الثقيلة؛ لتدرك أن هناك واقعاً قد يفوق الخيال جمالاً. هتفت بها يوماً:

- لا أدري يا حياة لم أحس أنّك يوماً ما ستكونين قادرة على رؤية ما أراه؛ وستبصرين..

فكانت تهتف ضاحكة:

- أوه! إنّك واسع الخيال، يا صديقي!

وكانت لقاءاتنا على قصرها مضيئة، أحس فيها جمال الومض وهو يضيء الكون ولو للحظات.. وكنت أرجو لو امتدت؛ لكنها وفي كل مرة تقطعها هاربة مني. كانت أذنا حياة أرهف مني في اكتشاف المتسلل أو القادم قريباً منا. وكثيراً ما تنقطع

تلك اللقاءات بظهور الزيبق. ومع أن ظهور الرجل كان يبدو تلقائياً أحياناً لا تعمد فيه، إلاّ أنّه كان يملؤني كرهاً وخشية.. حاولنا تغيير مكان لقاءاتنا عدة مرات بلا جدوى. إلا أن حياة في النهاية رددت عليّ بألاّ أفكر بهذا الزيبق كثيراً، أو أن أثير معارك معه طالما أنه لا يبادر. وأكدت لي بأنّ هذا الرجل أصغر من أن يكون نداً في قلبها. كفى: فلقد اختارتني..!.

وعلى هذه الثقة السديدة، فارقت يوماً فتاتي حياة، حين رأت إدارة المعهد ضرورة نقلي عاجلاً إلى المستشفى لإجراء جملة فحوص على حالتي النفسية والعصبية، وللتأكد من أنني اعمى نتيجة لتقارير - وردت إليها من مراقبين - شكت في كوني ربما أمر بحالة مرضية، أو قد احمل مرضاً من الأمراض الوافدة التي قد تضرّ بالنزلاء الآخرين.. وكان القرار لطمة مفاجئة لى، ولكن ولأن المسألة لا تتعدى الظنون، وجدت من الخير أن أناور ،وذلك بالاستجابة لهذا القرار. خاصةً وهي أيام ثم أعود لاتمام مهمتي في المعهد. إلا أنّ غيابي قد امتد أكثر من شهر، حتى تمت الفحوص على جهازي العصبي.

ظهر هذا اليوم أعدت إلى المعهد من جديد؛ وكان عليّ أن أطير مسرعاً للقاء المساء منتظراً فتاتي حياة. وكانت اللطمة شديدة علي حين بصرتُ بفتاتي الحبيبة الأثيرة تأخذ بيدي الزيبق؛ وهما ينتحيان وراء شجرة يتناجيان ويتضاحكان. اندفعت أمامها مباشرة وهتفت:

- أحقاً.. هكذا يا حياة تخونين حبي مع هذا النذل؟ أنسيت مروان؟

هتف الزيبق مقلداً صوتي تماماً:

-ولكني أنا مروان، فلماذا تتطفل علينا أيّها الوغد؟ مَن تكون؟

ورحت والزيبق نتبادل التهم والسباب والأيمان باللغة نفسها وباللهجة نفسها. وفهمتُ اللعبة: كان هذا الزيبق قد أجاد تقليدي أمام حياة، ولم يترك ثغرة شك! قلّد احاديثي بلهجتي نفسها، قلّد مخارج ألفاظي، ولثغ بالراء لثغي بها. حدثها حديثي عن سمك ونجوم. وسار أبعد حين تلامست أيديهما. وكان مما فاتني أن ألمس يدّ حياة يوماً؛ إذ كيف لها أن تميز بيننا حين لم تعرف ملمسي يوماً؟

كان ظهوري المفاجيء قد ألجم الفتاة. فاختلطت في عقلها الأشياء. هتفتْ بضراعة.

- يا الهي! ولكن أيكما مروان؟!

تدافعت كلماتي وكلمات الزيبق متصادمة: - أنا مروان، وهو الزيبق..

هتفت محتجّة:

- اذهبا معاً. انتما مروانان، وزيبقان معاً. لقد اتعبتماني. إنّ رأسي يكاد ينفجر!

ثم انفجرت باكية. صحت بها:

- قفي، تشهدي برهاني بأنني أنا مروان لا هذا.

انسحبت راكضة وهي تردد: - لا وقت لديّ، يا للخيبة!

بعد انسحابها، التفتُ إلى الزيبق، وأنا اتميز غيظاً. كان يقف على بعد يسير مني، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة. صحتُ به:

- شُف! أنت تعرف أنني مروان، وأنت الزيبق، فلماذا تلْجأ إلى هذه اللعبة النذلة؟!

قال: - إني اتجاوز شتائمك الآن، ولكن أما تدري أن للضرورات أحكامها؟ لقد افسدتَ عليّ حياتي مع العمي؛ فلأفسدن عليك حياتك. ألا ترى أنّها جريمة وعقاب، وانك تدفع ثمن تطفلك علينا؟

هتفتُ به: - ولكنك لا تعرف أنّه يتحتم عليّ كشف كلّ الفساد والخروق في معهدكم؛ وجزء من ذلك ألاعيبك، وخداعك للعمي؟

قال بسخرية: - لقد مات آخر الأنبياء والمصلحين. ومع هذا فلنعقد صفقة: أنا أعرف مَن أنت، ولماذا جئت. وأنا حتى لو سلمت بما تهدف به عن مهمتك، فأنا لا اعترض على ذلك؛ ذلك لأني واثق من لا جدواها. إنّك لست أعمى. قد تكون أحد المخدوعين، أو عاطلاً خسر اللعبة مع المبصرين في الخارج.. عضّك الجوع هناك، وسمعت عن حياة متبطلة رخية هنا؛ فزوّرت أوراقاً، وجئت هنا لتملأ بطنك. لا عجب؛ فقد فعلها آخرون قبلك ولكن الإدارة كشفتهم؛ فأخرجوا من المعهد إلى السجن.. ثق أنني لن أبلغ عنك طالما أنّك ستبتعد عن هذه الفتاة ولا تعترض طريقي..

هتفت به محتجاً: - ولكن احذر؛ فلي قوتي أيضاً.. سأفضح « تقواك » فاهدم مركزك بينهم. أجاب:

- ما زلت جديداً.. إنّهم لن يصدقوك سريعاً. لقد عشت أكثر منك هنا؛ وللتجربة امتيازها. اعترف انك قد تصيب بعضاً من نجاح في التشكيك بي، ولكنك ستطرد في نهاية الأمر حين ينكشف أمرك للإدارة.. لا بل إن العمي أنفسهم قد يجهزون عليك؛ فهم لا يرحمون المتسللين إلى مجتمعهم. لقد اطلعت على عورة الجمل؛ فاحذر ثورته..!

صرختُ به: - إذن، فأنت تهددني؟!.

أجاب بهدوء: لا بل أقدم عرضاً وامهلك لسويعات..

انسحب عني الزيبق مع احساس بمتانة موقعه. وتركني وسط هذا المرج الواسع؛ اراجع حساب العمر.. لحظة واحدة قد تؤكد وقد تمسح..!

أمامي تيه - من الحيرة - واسع. قلتُ لأغمض عيني عنه. لأوقف نزيف التداعي. وحتى لو لم يبق أمام طائر التمّ من عمر، فقد تبقى له أغنيته الأخيرة. قلتُ لنفسي إن هذا الطائر لا يؤكد بتلك الأغنية سوى نفسه. صرخت بنفسي: فلأؤكد نفسي أمام هذا الزيبق؛ إذ ما الذي يبقى لي حين أربح عالم العميان، وأخسر نفسي!.

أيّ حكيم قال هذا؟ حكيم أراد أن يوقف النزيف في أعماق الباحثين عن قناعاتهم في مرايا الآخرين المهشمة..

اندفعت أركض وسط المرج. وصلت بناية المعهد فولجتها ثم اندفعت إلى قسم العمياوات. قلت لأسمع حياة اغنيتي التي قد تكون الأخيرة.. واجهتها أمام الباب. كانت تنصت لخطوي هتفت بفرح:

- مروان!

صحت بها: نعم

أمسكتها من يدها واكملت:

- لا مجال؛ تعالي معي بعيداً عن هذا المعهد!

وخرجنا أنا وحياة مخلفين وراءنا بوابة العمي. وكنا نسمع خلفنا ضجة كبيرة لأصوات متدافعة، وخطى حثيثة تحاول اللحاق بنا.